حورية

بقلم : كمال حمدى

واخيرا وصلت ..

حقيقةبقيت مشكلة صغيرة مااهونها من مشكلة قالوا لى – من يسير على الطريق – حتما يصل ... ولقد سرت متبعا تعليماتهم كادق ما يكون.. ووصلت فى النهاية .. لم يبق سوىذاك المشكل الصغير .. ما اهونه من مشكل

فى بداية الطريق .. شغلنى عنه .. ذاك الحلم الذى يراودنى عن نهايته .. ورود وبساتين .. زهور هنا وهناك.. وريحان .. ما اطيب رائحته الذكية .. كل هذا فضلا عن «الست حورية» .. الست حورية التى وهبت نفسها لكلمن يطرقبابها.. تهبهم كل مايطلبون .. سعادتها فى انتهب دائما.. لاتبخل ولا تكل .. فقط عليك أن تصل اليها وتطرق بابها فى ظلمة الليل ..ولك انتسال كل ماتريده ..ستجده لديها.

عشت فى ذلك الحلم .. بينما اسير فى طريقى اليها .. خطوات وخطوات .. حتى شعرت ببعض التعب فىقدمى .. فقط هنا احسست بالطريق الذى اسير فيه .. تلفت حوالى .. فاذ هى الصحراء الجرداء لا ظل لأحد ... ولا رفيق .. والسماء خالية حتى من السحاب .. ليس هناك سوى الرمال الصفراء والشمس وانا.. رمالوشمس وانا كل ما هناك ... وحيد انا على الطريق .. طريق لا تبدو له نهاية.. وما زالت فىالنفس ذكرى عن بدايته..

من الذى اتى بى هنا ..؟ حديث عابر فى مقهى نجلس اليه .. كم حدثنا رضوان عنها .. امراة مليئة بالانوثة.. تهب السعادة لكل من يطرق بابها .. واخذ حديثه بكل الالباب .. حتىصرنا جميعا نتشوق الى سماعه كما نشتاق الىسماع سيرةالظاهر بيبرس. وسيف بن ذى يزن .. كنا نظن حديثه خرافة .. الى ان عاد الشيخ حمزة منعندها بعد ان ارتحل عنا وغاب ثلاث سنوات .. عاد يحدثنا عنها نفس الحديث.. وان كان بوقع اجمل يستمده منالواقع المرير الذى نعيش فيه .. ولكمخالجنى سؤال عنيد ..

***

لماذا عاد اذن الشيخ حمزة .. مادام قد عثر على السعادة التى نحلم بها بين ضبابات الدخان المتصاعدة من افواهنا ... وكثيرا ما كنت اهم ان اساله ذاك السؤال فى الجمع المحتشد

المنصت الى حديثه المتشوق .. ولكنى دائما كنت اوثر الصمت .. خوفا ان أعكر السهرة بسؤال سخيف .

وفى ليلة آثرت ان اصحبه الى بيته بعد انتهاء السهرة ودار فى ذهنى السؤال الملح وانتهزت فرصة الظلام الذى يلفنا سويا.. فبادرته بالسؤال.

ـ ايه .. لماذا عدت اذن يا شيخ حمزه من عندها ...؟

لم يفاجأ الشيخ حمزه كما كنت احسب .. بل صمت لحظة واجاب وبريق عينيه مسلط على ..

ـ سؤالك ليس وليد اللحظة ... لقد لمحته فى عينيك منذ زمن طويل محمود .. هذا امر الله .. وامر الله مطاع .. محمود .. اذهب اليها فانك من رجالها ... وهذا هو مصيرك .. وانى المح فى غيابات المستقبل ماينتظرك من سعادة .. اذهب ان الطريق شاق ولكن النهاية مجزية .. فكر فى الامر وترو .. وان عزمت فآتنى غدا بعد منتصف الليل .. لازودك بنصائحى.. وعلامات الطريق .. ترشدك خوفا من الضلال .

***

وقد كان ... بقيت .. بقيت ليلتى مسهدا..وغداة يومى شاردا..لا أدرى فيم السهادوفيم الشرود..فلقد اتخذت قراري منذ حدثنى هذا الحديث ... وذهبت اليه فى منتصف الليل ولم يستغرق حديثنا سوى ساعة بدات فى اثرها رحلتى فورا اليها ..

وحيدا صرت فى الطريق .. وكثيرا

ما صادفت المشاق .. حر شديد .. وتعب اشد .. وجوع وعطش ... وهواجس وظنون .. وخاطر ندم ينمو نمو الايام ... يراودنى ... الم اكن سعيدا حيث كنت .. كانت هناك ثمة عروس تنتظرنى .. وكان كل شىءمعدا لاستقرارى وهنائى .. وتمضى حياتى كما مضت حياة الكثيرين من قبلى .. فلم استمعت الى هذا الصوت ؟ ولم آثرت الرحيل .. وهذه المشقات التى تبدو لا نهاية لها .. ايه .. المكتوبعلى الجبين لا بد وان تراه .

واخيرا لاحت نهايةالطريق.. وبدات المدينة بمعالمها كما حدثنى الشيخحمزة .. وولجت اول طرقها .. فهالنى ما ارى .. لم ار سوى مدينة صغيرة تكاد تشبه قريتنا .. اهذا ماحسبته .. لقد خلت فى احلامى مدينة ذات قباب عالية .. تحف بها الانهار ... طرقاتها مروج خضراء .. اين كل هذا من تلك المدينة التى اسير غريبا فىطرقها .. الا اننى أثرت المضى .. جميعا يعرفون قصرها .. فتوقفت لأسألاحد العابرين :

ـ السلام عليكم ..

ـ عليكم السلام .. غريب ..

ـ غريب .. هل لك ان تدلنى على قصر الست روحية ..

ـ قريب جدا من هنا .. عليك ان تسير فى هذا الطريق حتى نهايته ثم تنحرف الى اليمين تجده امامك .

آه .. واخيرا قدوصلت.. وهممت ان اسير حتى ابلغ النهاية سريعا .. ولكنى تذكرت قول الشيخ رضوان.. « للست حورية عادة غريبة .. دائما تنظر الى حذاء اى ضيف يزورها .. ان كان نظيفا لامعا .. تقبل الزائر بترحابوان كان قذرا متربا تطرده على الفور » .

ونظرت الى حذائى.. فهالنىالتراب الجاثم عليه.. فرجعت لابحث عنمحل احذية .. وطال بى البحث الى ان سألت أحد العابرين ..

ـ الا يوجد محل احذية قريب ..؟

ـ فى بلدتنا لا يوجد سوى محل احذية واحد .. هناك فى (ميدان الحياة) .. سر الى الامام ثمانحرف الى اليسار .

***

وسرتسريعا الى « ميدان الحياة » وهناك وجدت طابورا طويلا جدا امام احد الدكاكين (واقتربت) لم يكن سوى دكان الاحذية .. ومضيت الى داخل المحل فتعالت اصوات الإحتجاج .

ـ ايه بالدور يا اخينا .. ما زلنا منتظرين منذ ايام الى ان يأتى دورنا.. بالنظام .. اتفهم بالنظام ..

ورجعت الىنهايةهذا الطابور الآدمى الطويل .. اقف منتظرا . وسيطول انتظارى .

نعم .. هذه هى مشكلتى الاخيرة.. وكم هى هينة .. على فقط ان انتظر دورى لتلميع الحذاء .